

وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها

تكرر هذا النص الحكيم في موضعين من كتاب الله عز وجل ، غير أن ختام الآية قد اختلف في كل موضع منهما، ففي سورة إبراهيم يقول تعالى : ((وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار)) [إبراهيم: 34] ، وفي سورة النحل يقول الله عز وجل : ((وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم)) [النحل : 16] .

ويلاحظ أن الله تعالى أعقب ذكر النعمة في الآية الأولى بذكر المنعم عليه وهو الإنسان ووصفه بصفتين لازمتين لأكثر البشر وهما الظلم والكفر ، بينما أعقب ذكر النعمة في الآية الثانية بذكر المنعم جل وعلا ، ووصف نفسه بصفتين من أخص صفاته سبحانه وهما المغفرة والرحمة ، بل إن الوصف جاء في الحالتين بصيغة المبالغة الدالة على الكثرة والتكرار ، فالله تعالى ليس فقط غافراً راحماً بل هو غفور رحيم ، وجنس الإنسان ليس فقط ظالماً كافراً بل هو ظلوم كفار ، ففي مقابل كفر الإنسان وظلمه تظهر مغفرة الله ورحمته ، وكأنه تعالى يقول لنا أنا أعلم أن الإنسان ظلوم كفار لكنه إن عاد إليّ قبلته وغفرت له ما كان منه فأنا الذي سبقت رحمتي غضبي .

وفي هذا القول الحكيم يمتن الله على عباده بنعمه الجليلة التي أنعمها عليهم؛ فقلوه : (نعمة الله) هنا اسم جنس يشير إلى كل ما أنعم الله به على عباده من النعم الظاهرة والباطنة ، كما قال تعالى : (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبع عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) [لقمان : 20] .

وإن القرآن الحكيم حين يذكر بهذه النعم التي لا تعد ولا تحصى فإنه يبين فريضة الله في مقابل هذه النعم العظيمة أن يشكروه فلا يكفروه .

والشكر كما قال الهروي : منزلة من أعلى منازل السائرين ، وهو نصف الإيمان ؛ فإن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر ، وقد وعد الله أهله بالمزيد فقال : ((وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)) [إبراهيم 7] ، وليس من مقام أرفع من الشكر الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان حتى المحبة والرضا والتوكل وغيرها فإن الشكر لا يصح إلا بعد حصولها .

وقد سمى الله نفسه بالشكور؛ فهو الذي يشكر عباده إن عملوا بطاعته كما قال تعالى : ((إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً)) [الإنسان : 22] ، وفي هذا من المعاني العظيمة أنه تعالى أعاد الشاكر مشكوراً ؛ فمن سعى في طاعة الله شاكراً له يثيبه الله بأن يشكره ، بل يزيد في شكره فوق ما يستحق ؛ وذلك لما تقتضيه صيغة المبالغة في تسمية الله نفسه بالشكور ، هذا مع أن الذي وفقه للشكر هو الله تعالى فسبحان من وفق العبد لشكره ثم شكره على شكره فأجزل له العطاء

،ومن هنا قال بعض السلف : إن شكرك لله يحتاج إلى شكر لأنك لا تشكر الله إلا بتوفيق منه فكلما شكرت الله احتجت لشكره على توفيقه إياك لشكره.

والشاكرون في الناس قليل ،وقد قال تعالى ((وقليل من عبادي الشكور)) [سبأ:13]،وقد قص علينا القرآن الكريم أن اللعين إبليس قد قال لربه عن بني آدم ((ولا تجد أكثرهم شاكرين)) [الأعراف :17]،وقد كان هذا مجرد ظن منه وتوهم ،لكن صدقه الواقع ؛كما قال تعالى : ((ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين)) سبأ 20.

وقد وصف الله بالشكر خواص عباده من أنبيائه ورسله فقد قال عن الخليل عليه السلام ((إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين *شاكراً لأنعمه)) [النحل :120-121] ،وقال عن آدم عليه السلام : ((إنه كان عبداً شكوراً)) [الإسراء : 3] ،وكذلك كان رسولنا ﷺ عبداً شكوراً فإنه صلى الله عليه وسلم قام الليل حتى تورمت قدماه فلما قيل له تفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: ((أفلا أكون عبداً شكوراً)) البخاري 4836 ومسلم 2819 من حديث عائشة .

وليس الشكر مجرد نطق باللسان بل لابد معه من شكر القلب وهو أن يقر العبد بنعم الله عليه ويعترف دوماً بفضل الله عليه وأنه مهما فعل فلن يؤدي ما يجب عليه من شكر لله تعالى ،ولابد أيضاً من الشكر العملي وهو تصريف هذه النعم في طاعة الله وعدم استعمالها في معصيته ،ولا يتم الشكر إلا بهذا الجانب العملي الذي هو متسق مع المعنى اللغوي للشكر ؛فالشكر في لسان العرب مأخوذ من قولهم شكرت الدابة تشكر شكرًا (كفرح يفرح فرحاً) إذا سمت وظهر عليها أثر ما تأكل ،والدابة الشكور هي التي تأكل قليلاً وتسمن كثيراً ،وهكذا معنى الشكر في الشريعة لابد فيه من ظهور أثر نعمة الله على العبد تحدثاً بما لقوله تعالى : وأما بنعمة ربك فحدث ،وعملاً بطاعة الله فيها كما قال تعالى : ((اعملوا آل داود شكراً)) [سبأ: 13] .

وأكبر نعمة يمن الله بها على عباده هي نعمة الإيمان والإسلام كما قال تعالى : ((بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين)) الحجرات : 17،وفي سورة البقرة يذكرنا الله تعالى بنعمة إرساله الرسول ﷺ ،ويبين أن الواجب في مقابل تلك النعمة أن نذكره تعالى فلا ننساه وأن نشكره فلا نكفره فيقول تعالى : ((كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون)) [البقرة :151-152].

وإذا كان إرسال الرسول ﷺ بالشريعة الخاتمة هو النعمة العظمى ،فإن شكر هذه النعمة لا يتم إلا باتباع هذا الرسول وتحكيم شرعته ،وإن من أعظم الكفران أن تنحى هذه الشريعة ويتحاكم إلى

غيرها من القوانين التي ما أنزل الله بها من سلطان ، وإنه لمن أعجب العجب أن يكون في أيدينا الدواء الناجع لكل أمراضنا ومع ذلك نتغاضى عنه ونلتمس الشفاء في سواه :

ومن العجائب والعجائب جملة قرب الدواء وما إليه وصول

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

إن من أسوأ مظاهر كفران النعمة أن يتحول الكفران إلى ظاهرة عامة . بمعنى أن يتواطأ الناس في أمة أو جماعة من الناس على كفر نعمة الله عز وجل ، وإن هؤلاء لجديرون بأن تحل بهم سنة الله التي خلقت في عباده فيأخذهم بذنوبهم ويزيل عنهم ما هم فيه من النعم كما قال تعالى : ((وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون)) [النحل:112] ، وقد قص علينا القرآن نبأ سباً وما كانوا فيه من النعم الوفيرة وأنهم لما كفروا بنعمة الله وأعرضوا عن شريعته أهلكتهم ومزقهم كل ممزق ؛ كما قال تعالى ((لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور* فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل حط وأتل وشيء من سدر قليل* ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور)) . [سبأ: 15-17]

وإن في ذلك ما يبين لنا سنة من سنن الله في خلقه وهي أن معصية الله تعالى والبعد عن شريعة من أهم عوامل خراب المجتمعات وفسادها كما قال تعالى : ((وتلك القرى أهلكتناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً)) [الكهف: 59].

بل إن الخراب يحل ولو كان في الأمة أختيار إذا ما كان أهل الفساد هم الظاهرون الغالبون ، وقد جاء في الحديث عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فرعاً وهو يقول : ((ويل للعرب من شر قد اقترب ، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق يابسه الإبهام والتي تليها ، قالت زينب : أهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث)) .

[أخرجه مسلم (2880) والترمذي (2187) وابن ماجه (3953) .]

عبد الآخر حماد